

هل هناك مستقبل للمسيحيين في الشرق الأوسط؟



04 نوفمبر 2019 - 07:56

د.حنا عيسى

"أيها الأعداء، وإن كنتم قليلين من حيث العدد فإنكم رؤاد حياة الكنيسة والبلدان التي تعيشون فيها. إن الكنيسة كلها قريبة منكم وتوازركم، مع الكثير من المحبة والتقدير لجماعاتكم ورسالتكم. سنواصل مساعدتكم من خلال الصلاة والوسائل الأخرى الممكنة" (البابا فرنسيس)

قبل الخوض في مسببات الهجرة من بعض بلدان الشرق الأوسط لآبد من الإشارة إلى أن العلاقات المسيحية - الإسلامية عبر التاريخ تميزت بوجهين:

الأول: يمكن أن يوجه كرسالة إلى العالم، تؤكد على أن العلاقات المسيحية - الإسلامية تاريخياً كانت في المستوى العالي المطلوب، أو بعبارة أخرى مرت هذه العلاقات من حيث طبيعتها وفحواها في اقلية صحيحة، مما أدى إلى خلق مناخ وطني في كل المراحل خاصة الصعبة منها.

وثانياً: أن بناء هذه العلاقات المميزة وضعوا أسساً لا تتزعزع لعلاقات أقوى حاضراً ومستقبلاً، وقد يكون هذا الوجه الثاني هو الأهم لأن صفحة الماضي قد طويت، وحتى إذا أساء الواحد إلى الآخر تبقى العبر هي الأهم، لأنها تشكل هذا الأساس لرؤية صائبة تتطلع إلى مستقبل أفضل للعيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين.

فإذا عدنا إلى العلاقات المسيحية - الإسلامية بشكل عام لوجدنا أنها ليست حديث العهد فالمسيحية ببعض رؤاها ومعتقداتها موجودة في آيات واضحة في القرآن الكريم. أما حول حرية وممارسة الشعائر لدى المسيحيين ومكانتهم في المجتمع ودورهم في بنائه، فنجد أن القرآن يوصي بحماية بيعهم والتشديد على أن نكر الله هو دائم في صلواتهم، فأمة أمنت أنها كانت خير أمة أخرجت للناس، أمنت بان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مبدأ أساس لها في علاقاتها مع الآخر. ومما لا شك فيه أن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين لا يمكن أن تكون مميزة إلا على مبدأ المساواة. فالعدالة هي الأساس التي تمنح الحرية الكاملة لكل المؤمنين والقران الكريم بين أن المساواة والعدالة بين الناس، ليس فقط في الشعائر التي ينادي بها الناس، وإنما مبدأ أساس من الإيمان الذي أراده لكل الشعوب.. ومجمل القول إن نظرة الإسلام من خلال القرآن الكريم إلى المسيحية واضح، فهو بني على أن: وإلهنا وإلهكم واحد. فإذا كان القرآن الكريم وهو الأساس في الإسلام يحث المسلمين على أن يربطوا علاقات مميزة مع المسيحيين، فهل من أداة أخرى تستطيع أن تغير في رؤية الإسلام إلى المسيحية عبر التاريخ.

ومما لا شك فيه بان الحروب والأزمات السياسية في منطقة الشرق الأوسط تساهم في تقوية الهجرة كما هو حالياً في الأراضي الفلسطينية المحتلة أو في العراق أو في لبنان

أو في سوريا أو في مصر. فإن الذي يحدث حاليا في المنطقة لا يمكن وصفه بهجرة دينية، فهي أصبحت في الآونة الأخيرة هجرة من مناطق الحروب إلى مناطق الأمل أو الملاذ لاماكن أمنة أكثر من الوطن الأم، مثلها مثل هجرة المسلمين الجزائريين منذ الحرب العالمية الأولى والثانية التي هي بهدف البحث عن حياة أفضل. لكن الخطر الداهم حاليا هو هجرة تتصاعد منذ عقود في البلدان التي يشكلون جزءا أساسيا من بناها الديمغرافية مثل العراق و لبنان ومصر وفلسطين وسوريا وبلدان أخرى ومن أسبابها ما جرى من قتل إرهابي ضد المصلين والكهنة في كنيسة النجاة في العراق والتي راح ضحيتها ما يقارب الستين قتيل بالإضافة لأكثر من مائة جريح مما حدا بالمواطنين العراقيين الطلب من الحكومة العراقية على اتخاذ الإجراءات اللازمة للحد من العمليات الإرهابية التي تقوم بها جماعات متطرفة ضد المساجد والكنائس، أما في فلسطين تعتبر سياسة المحتلين الإسرائيليين حيال الفلسطينيين والمسيحيين منهم خاصة سببا رئيسيا لهجرتهم. وقد تدهورت أعدادهم في شكل لافت في 52 عاما التي انقضت، وكان انخفاض عدد هؤلاء واضحا في المدن والقرى المسيحية أو المختلطة مثل القدس بيت لحم ورام الله، واتجه جزء هؤلاء في البداية إلى البلدان العربية بقصد العمل أو الدراسة أو الإقامة المؤقتة، لكن كثيرين منهم غادروا لاحقا إلى بلدان الغرب التي شجع العديد منها هجرة المسيحيين إليها في إطار عملية توطین تمثل جانبا من جوانب حل سياسي لصراع الفلسطينيين مع إسرائيل. علما بان عدد المسيحيين في المنطقة العربية يصل إلى ما بين 12 إلى 15 نسمة غالبيتهم تعيش في مصر، ويتوقع البعض أن يهبط الرقم إلى 6 ملايين بحلول عام 2025 نتيجة موجات الهجرة المتوالية للمسيحيين. أما في نتائج الهجرة المتزايدة فجاءت بفعل التقلبات السياسية لبلدان الشرق الأوسط وما خلفته من آثار اقتصادية واجتماعية دفعت الملايين من مسيحيي المنطقة إلى الهجرة، الأمر الذي أسفر عن مجموعة من النتائج السلبية على حياة المنطقة وبلدانها مثل التغييرات في البنية الحضارية والثقافية للمنطقة والتي كانت في الأساس منطقة تنوع ديني يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود إلى جانب أتباع ديانات أخرى مزيد من الكراهية على أسس مذهبية وعرقية وفقدان المنطقة جزءا من طاقاتها وقدراتها البشرية والمادية، وهي طاقات تحتاج إليها في عملية التنمية.

وبغض النظر عن الأوضاع المتأزمة في بلداننا العربية، فإننا بحاجة لنشر ثقافة قبول الآخر واحترامه واستخدام كل الوسائل التربوية والتعليمية والإعلامية والثقافية المتاحة وهذا يتطلب جهود جماعية مشتركة ومنظمة بين المسلمين والمسيحيين، وعمل على ارض الواقع. وعدم الاكتفاء بالخطابات العاطفية " رغم أهميتها " بل يتطلب أيضا تحديث الخطاب الديني وتطويره بحيث يساهم في إعادة اللحمة بين أبناء الوطن الواحد، وإزالة الأحكام والتصورات المسيقة عن الآخر، والسعي للتعلم والفهم عن الآخر. وعلى ضوء ما ذكر أعلاه، فإن هجرة المسيحيين من الشرق الأوسط يساهم في إفقار الهوية العربية وثقافتها وأصالتها.. إذن لا بد من الحفاظ على الوجود المسيحي في الشرق الأوسط كضرورة إسلامية بقدر ما هو ضرورة مسيحية. وواجب إسلامي بقدر ما هو واجب مسيحي.